اسم المصدر: المدينة المنورة

التاريـــخ: 19-06-2009 رقم العـدد: 16858 رقم الصفحة: 7 مسلسـل: 47 رقم القصاصة: 1

عصر من المبادرات

اسم المصدر: المدينة المنورة

التاريـــخ: 19-06-2009 رقم العـدد: 16858 رقم الصفحة: 7 مسلسـل: 47 رقم القصاصة: 2

كتب: محرر الشؤون المحلية

ينجح الناس أو يخفقون بمقدار ما يستثمرون ما تحت أيديهم من ثـروات، ومـا بـين جوانـحـهـم من قدرات، ولا تختلف الدول في ذلك عن الأفـراد، فهي أيضًا تنجح أو تخفق بمقدار استيعابها لسؤال الهوية: «من أنا؟» أو «من نحن؟» فهذا هو السؤال المفتاح الذي تحدد الإجابة عنه نظرة الوطن لذاته، ومدى استيعاب القيادة فيه لأبـعـاد الـذات الوطنية، ولما تستطيعه تلك الذات وما لا تستطيعه، ما تستحقه، وما لا تستحقه، وذلك بالطبع بعد التعرف على ما تحويه هوية الوطن من مقومات، وما تتيحه له من أدوار، هي بين يديه بالفعل أو يتعين عليه العمل لانتزاعها، بالعلم وبالسياسة أو حتى بالقوة.

الوعي بالهوية إذن، هو أولى خطوات أي عمل وطني، وأول محددات أي قرار سياسي، لكنه وحده لا يكفي لصناعة دور، أو لصياغة موقف، فمستوى الوعي بالهوية الوطنية يتوقف الى حد ما على ما تتمتع به القيادة من حس وطني مرهف، واستيعاب دقيق للظرف، ومعرفة بـحـدود الـقـوة، وبـــأدوات التأثير المتاحة، ثم قبل كل هـذا وبعده، على بصيرة تلك القيادة، ومـا اذا كانت لديها «رؤية» صائبة لمستقبل الوطن، وشجاعة كافية لبسط هذه الرؤية، ووضعها في طور التنفيذ.

وفـي السياسة ثمة أدوات أو وسـائـل قـيـاس للتعرف عـلـى مـا اذا كـان وطـن مـا أو قيادة تمتلك الرؤية، وشجاعة طرحها، وأدوات بسطها على الأرض، أول وأبسط هذه الأدوات، هو التعرف على حجم واتجاه ما تعكسه قرارات القائد أو الوطن من مبادرات، سواء على صعيد الداخل فيما يتعلق بخيارات التنمية والبناء، أو على صعيد الخارج فيما يتعلق بحماية الدور وتوسيع مناطق التأثير، من أجل حماية المشروع النهضوي في الداخل، لأن أي قرار يتعلق بالسياسة الخارجية لدولة ما ينبغي أن يستهدف حماية مصالح جميع مواطنيها دون استثناء.

المبادرات إذن هي أبسط الأدوات لقياس الأداء السياسي لقائد أو لوطن أو لنظام، لأنها تعني ببساطة أن قيادة هـذا الوطن تستوعب أبعاد الهوية الوطنية، وتعي بدقة المصالح الوطنية العليا، ثم أنها تمتلك رؤية لتحقيق الـذات الوطنية مـن جهة ولصيانة المصالح العليا للوطن من جهة أخرى، ثم أنها تدرك حدود القوة وحساباتها المعقدة، وتسعى لامتلاك أدوات التأثير، وتتحرك باتجاه توظيف كل ما سبق لصياغة مبادرة وطنية في شأن مشروع ما، داخلي أو خارجي، يستهدف صيانة الذات الوطنية، وتحقيق المصالح العليا للوطن. وهكذا فعندما نتحدث عن المبادرات فإننا بالضرورة نعني من صنعوها واستوعبوا كل ذلك لصياغتها وطرحها وحشد الأدوات لإنجاحها.

وإذا كان ثمة ما يميز عصر الملك عبد الله بن عبد العزيز، على مدى سنوات أربع منذ بيعته، وحتى لأعوام خلت قبلها حين كان وليًا للعهد، فهو أنه عصر المبادرات، التي بدأت بمبادرة لـ «سمو ولي العهد الأمير عبد الله بن عبد العزيز» طرحها ضمن حوار مع الصحافي الأمريكي توماس فريدمان قبل نحو سبعة أعوام، بشأن سبل تسوية نهائية للصراع العربي – الإسرائيلي، عندما سأله الصحافي الأمريكي: «ماذا في درج سمو ولي العهد؟». وهي المبادرة التي تبنتها قمة بيروت العربية فيما بعد لتحمل اسم «مبادرة السلام العربية». هذه المبادرة أصبحت الوثيقة العربية الرئيسية، فيما يتعلق بسبل إنهاء صراع الشرق الأوسط، وهـي الآن الورقة العربية –ربما الوحيدة– على طاولات الحوار كلها، أمام مَن يريدون الحديث عن علاقات طبيعية بين إسرائيل وسائر دول المنطقة العربية، فالمبادرة وضعت شروطًا لإقامة تلك العلاقات لا تقبل التنازل أو حتى التفاوض. مثل هذه المبادرة تستمد وزنها وقيمتها من كونها «سعودية» ومن كون من طرحها هو خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبدالعزيز، وهنا فإن مصدر القوة في المبادرة هو أن من طرحها قد استوعب سؤال الهوية: «من أنا؟ ومن نحن؟» وأنه قد استوعب الظرف الاقليمي والدولي

(عـقـب هـجـمـات سبتمبر على واشنطن ونيويورك، وإبـان أحداث الانتفاضة الثانية فـي الأراضي الفلسطينية المحتلة).

مـبـادرة السلام العربية التي طرحها المليك قبل سنوات، ليست الوحيدة بين مبادراته الخارجية، فهناك أيضًا مبادرته للحوار بين أتباع الأديـان، تلك المبادرة التي حملت روح السعودية، واستوعبت مكانها ومكانتها، وعكست رؤية شعبها ونخبتها، حين جاءت تتويجًا لمـبـادرة أخرى«داخـلـيـة» للحوار الوطني الذي امتد على مدى سنوات، ثم فاض على العالم بمبادرة المليك للحوار بين أتـبـاع الأديـــان، تلك المبادرة التي جاءت لتعكس وعيًا سعوديًا عبر عنه الملك عبد الله بن عبد العزيز، بضرورة التصدّي بـ«الحوار» لدعاة صراع الحضارات، وهي دعوة نجحت في استقطاب رموز الحوار حـول الـعـالـم، حتى أن بعض من كانوا ضمن دعاة صدام الحضارات قد ردت اليهم هذه المبادرة صوابهم، فانخرطوا في حوار للأديان بديلاً عن صدام بين الحضارات، روّج له بعض رموز اليمين المحافظ في واشنطن، واستعانوا به كإطار فكري لحروب بدت للبعض وكأنها «حروب دينية». وبالطبع فقد استمدت مبادرة المليك للحوار بين أتباع الأديـان قوتها وقدرتها على التأثير من شخصية المليك ذاته ومن استيعابه لقدرة المملكة على التأثير والتغيير، فقد استطاع المليك نقل مبادرته للحوار من مدريد الى الساحة الدولية في الأمم المتحدة بنيويورك، واستطاعت المبادرة أن تقدم بديلاً عمليًا عن صدام الحضارات، وأن تربح أنصارًا أقوياء لمبدأ الحوار لا الصدام، ولا نشك لحظة في أن هذه المبادرة وما أفرزته من نتائج على الأرض، كانت بين عوامل التأثير التي صاغت مفردات خطاب الرئيس الأمريكي باراك أوباما إلى العالم الإسلامي من فوق منبر جامعة القاهرة، وهو مـا أشـار إلـيـه الرئيس الأمريكي بنفسه.

بـعـد مـبـادرة حـوار الأديـــان، جاءت مفاجأة المليك أمـام القمة الاقتصادية العربية في الكويت مطلع الـعـام الـجـاري، حين أعلن مبادرة للمصالحة العربية قال إنه يبدأ فيها بنفسه، مسقطًا كل خصومة في الماضي مع أي طرف عربي، وداعيًا إلى فتح صفحة جديدة، بدأها بتخصيص المملكة مبلغ ١,٥ مليار دولار لإعادة إعمار غزة التي كانت قد خرجت للتو من حرب تعرضت فيها لمستويات غير مسبوقة من الدمار.

لكن عصر المبادرات، الذي ميز سنوات اضطلاع الملك عبد الله بن عبد العزيز منذ بيعته قبل أربعة أعوام ولسنوات خلت قبلها، كان قد بدأ بمبادرة للحوار الوطني الذي يدخل الآن عامه الثامن، رعاها المليك منذ كان وليا للعهد، وأمر بتأسيس مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني، ليصبح الحوار آلية عمل مستمرة، من أجل صياغة رؤى وطنية تستوعب كافة الأطيـاف، وتنطلق بإيمان شعبي راسخ وبدعم ملكي واسع.

انطلاق الحوار عكس وعي القيادة بضرورة مشاركة كافة عناصر الوطن في صياغة رؤية وطنية للمستقبل، رجالاً ونساءً، شبابًا وشابات، علماء ومفكرين، رجال أعمال وعاملين.

وهكذا بدا الـحـوار قبل ثمانية أعوام بين أطياف مختلفة من أهل العلم الشرعي والفكر الإسلامي، وانـعـقـد فـي الـعـام الـثـانـي بمكة المكرمة ليبحث «الغلو والاعتدال.. رؤية منهجية شاملة». وفي العام الثالث تناول الحوار قضايا «المرأة.. حقوقها وواجباتها، وعلاقة التعليم بذلك». وفي العام الرابع تناول الحوار قضايا «الشباب: الواقع والتطلعات»، وفي العام الخامس بدا أن الحوار قـد أنـجـز مشروعه للتعرف على الذات وتحديد أبعاد الهوية الوطنية، فانطلق الحوار من أبها تحت عنوان «نحن والآخر: رؤية وطنية مشتركة للتعامل مع الثقافات العالمية» وهو ما مهّد الطريق بقوة أمام الملك عبد الله بن عبد العزيز لطرح مبادرة الـحـوار بين أتـبـاع الأديـــان التي أشرنا إليها، وهكذا فهي مبادرة لم تأتِ من فراغ، وإنّما مهّد لها حوار وطني داخلي رفيع المستوى، عكست مبادرة المليك للحوار بين أتباع الأديان طموحاته وتطلعاته، وعبّرت عن رؤيته للآخر. في العام السادس حمل لقاء الحوار الوطني الذي انعقد بمنطقة الحدود الشمالية عنوان «التعليم.. الواقع وسبل التطوير». أمّـا العام السابع فقد شهد حوارًا استضافته القصيم تحت عنوان «مجالات العمل والتوظيف»، تضمن حـوارًا بين المجتمع ومؤسسات التوظيف، بينما يجري الإعداد لحوار العام الثامن حول «واقع الخدمات الصحية وسبل تطويرها».

كل المبادرات السابقة وغيرها كثير، تفصح بـجـلاء عـن طبيعة عصر، امتلكت فيه القيادة الحدس الـتـاريـخـي، والـرؤيـــة الثاقبة، والبصيرة النافذة، والإرادة الناجزة، واستوعبت حقائق القوة لدى الذات الوطنية السعودية، وسعت لتوظيف واستثمار تلك الحقائق عند أقصى المستويات من أجل تحقيق المصالح الوطنية العليا. فـالـمـبـادرات لم تكن طلبًا لظهور إعلامي، أو سعيًا لمصالح فردية أو ذاتية ضيّقة، وإنما استهدفت في المقام الأول والأخير مصالح وطن استوعبته ووعته، ومستقبل مواطن استأمن القيادة على حاضره ومستقبله، فأوفت بعهدها معه، وسعت وما تزال من أجل تحقيق مكانة أسمى للوطن، ومستقبلاً أفضل للمواطن.. هذه هي السياسة ببساطة، أدوات نمتلكها ونعمل من أجل التوظيف الرشيد لها، من أجل تحقيق غايات يلتف حولها الجميع وطنًا ومواطنين تتقدمهم قيادة مخلصة.